مقال للأب متى المسكين

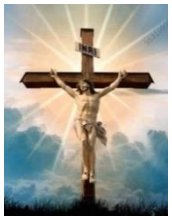

الصليب
وعظمة المجد[١]

⊙✠⊙

سرُّ الصليب هو سرُّ مجد المسيح وقدِّيسيه:

طوبى للحزانى لأنهم يتعزَّون، طوبى للمصلوبين لأنهم يتجلَّون،

طوبى للمنسحقين لأنهم يملكون، طوبى للجياع لأنهم يُشبَعون.

حيث تُنسى هناك كل أوجاعهم، وتُمسح دموعهم، وينمو موضعها نورٌ يشير إلى الأهوال التي اجتازوها وإلى سرِّ المجد المتحصَّل منها، ويشرح عِظَم صبْر الإنسان وقوة مراحم الله، حيث تبدو النسبة بين مقدار الألم ومقدار المجد المتحصَّل منه نسبة غير معقولة ومُضحكة. فيرى الإنسان عيانًا ويكتشف أن الآلام كانت فخًّا مقدَّسًا نصبه الله ليصطاد به الإنسان إلى مجده. فاحتمال الألم أقوى من العبادة.

ويقول أحد القدِّيسين إنه رأى في رؤيا جماعة الشهداء بمناظر مُذهلة في مجدٍ يفوق مجد الملائكة الذين كانوا معهم في نفس الرؤيا، ورأى حول أعناق الذين ماتوا منهم ذبْحًا بالسيف زهورًا حمراء كعقدٍ موضع الذبْح تُضيء وتتلألأ بمنظرٍ يخطف الأبصار أشدَّ لمعانًا من كلِّ نورٍ آخر ظهر في الرؤيا!

إن سرَّ الصليب بالنسبة للمسيح هو سرُّ مجده! فالألم الساحق الذي عاناه الرب تحت وطأة التمزيق النفسي بسبب الظلم، والالتواء الذي شاهده أثناء المُحاكمة مع خيانة التلاميذ وتسليم يهوذا، وإحساسه أنَّ حياته ثمَّنها رؤساء الكهنة باتفاقٍ مع أحد التلاميذ بثلاثين من الفضة!! هذه كلها كانت مَعْبرًا من عالم التفاهة المُتناهية إلى مجد الآب. وعلى هذا المَعْبر عينه يلزم أن تمرَّ أقدام الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكان.

آلام الصليب لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلَن فينا:

الصليب بآلامه الرهيبة لا يُمكن أن يساوي المجد الذي تحصَّل منه. الصليب لم يُصادف

---

(١) من رسالة رقم ٩٦، من كتاب "رسائل القمص متى المسكين"، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص ٣٩٤.

الرب في طريق حياته، ولكنه وُلد له: «لأَجْلِ هذَا أَتَيْتُ إِلَى هذِهِ السَّاعَةِ» (يو ١٢: ٢٧). الإنسان يُولد للألم، والألم مولودٌ للإنسان. ولكن، في نفس الوقت، الصليب لم يكن إلزامًا حتميًّا على الرب، كما نشعر من كلامه، وكما نتأكَّد من جهة قداسته ولاهوته؛ ولكن هو نفسه جعله إلزامًا حتميًّا على نفسه: «الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا؟» (يو ١٨: ١١)، لكي يُشاركنا في حتمية الألم؛ فبدا الله، في شخص المسيح ابنه ظاهريًّا، أنه يتألم اضطرارًا، حتى يجعل اضطرار الألم مساويًا لاختياره، حتى لا يُحرم أي إنسان في الوجود من رحمة الله، ويمتدُّ الصليب ليشمل كل مَنْ تألم ظلمًا.

إن الألم بحدِّ ذاته عثرة كُبْرى لعقل الإنسان، فالعقل لا يُجيز الألم كواسطة لأيِّ خير، لأن في المعرفة خلوصًا من الألم، وهو يُجاهد في ميدان الطب مثلًا وفي الميادين الأخرى لكي يُلغي الألم ويُريح الإنسان. ولو دققنا التأمل نجد أن مُحاولة التربية والتعليم بكل صنوفها من أول محاولة الإنسان تعلُّم الألف باء إلى الصاروخ، هي مُحاولة أساسية لتُجنيب الإنسان الألم والتعب والعَوَز.

لذلك، فحتمية الألم لدى العقل أمرٌ عسير وشاقٌ جدًا، بل ومُحال قبولُها، لأن الرضى بالألم هو بعينه إلغاء العقل وكل نشاطه. فالصليب عثرة فعلًا لدى اليونانيين، كما يقول بولس الرسول، أي عثرة الفلسفة، لأن الفلسفة تُحاول جاهدةً الوصول إلى الله عن طريق التأمل الأفلاطوني الحُر الخالي من التضحية أي الألم المؤدِّي إلى الموت. وهذا اللون من الاجتراء العقلي في مُحاولته البلوغ إلى الله دخل في فترةٍ ما المسيحية عن طريق التصوُّف الوثني ولوَّثها. فأوريجانوس يقول بإمكانية الاتحاد بالله عن طريق التأمل جاعلًا الله في الوضع الاستاتيكي (الثابت) والعقل في الوضع الديناميكي (المُتحرِّك)؛ أي ثبَّت الله في نقطة وجعل العقل هو الذي يسعى إليه. هذا اجتراءٌ وثني ناتج عن عدم شعور الإنسان بأُبوَّة الله ونزول المسيح وتودُّد الروح القدس ودخوله قلب الإنسان. والحقيقة عكسية: فالإنسان دائمًا أبدًا في الوضع الاستاتيكي، والله هو الذي يتحرَّك نحوه "ليأتِ ملكوتك". منتهى تحرُّك الإنسان هو أن يكون يقظًا لتحرُّك الله مُستعدًّا لمجيئه: «ثَابِتٌ قَلْبِي يَا اَللهُ، ثَابِتٌ قَلْبِي» (مز ٥٧: ٧).

الصليب هو استعلان محبة الله لنا:

فلو أدركنا أن الصليب هو أعظم مظاهر تحرُّك الله على الصعيد العياني المنظور الذي

فيه تجلَّى الله للإنسان (أكثر من تجلّيه على جبل تابور)، والصليب هو الألم في صورته العظمى التعسُّفية الظالمة؛ حينئذ نحسُّ أن الصليب هو الدَّابة (إن جاز التعبير) التي ركبها الله القدير وانحدر عليها من مكان سُكناه هناك، من موطن احتجابه الأزلي، وجاء إلينا وصافحنا يدًا بيد.

الصليب هو قوة ديناميكية الله الفائقة التي أحدرت الله إلينا (بالتجسُّد)، واستعلنته واضحًا بواسطة الألم. الألم هو – بصورته المادية – جُمودٌ وانحصارٌ وتوقُّف؛ ولكن – بجوهره الروحي – تحرُّك وأيُّ تحرُّك!

الإنسان يظل متوقِّفًا روحيًّا، وعاطلًا عن المسير، راجعًا مع المسيح إلى الله إلى أن يحمل صليبه.

الألم يُدخِل الإنسان في سرِّ الصليب، سرِّ التحرُّك الإلهي، فلا يتوقَّف كميت؛ بل يسير مشدودًا إلى المسيح، مُنقادًا ومُنجذبًا من ألمٍ إلى ألم، إلى أن يبلغ الآب محمولًا على صليبه تابعًا المسيح.

المسيح سَكَبَ فينا قوة الحب وقوة الصليب:

الإنسان يستحيل أن يتحرَّك نحو الله عقليًّا، فالعقل مهما بلغ بالتأمل، إنما يكتشف الله وحسب ويكتشف نوره وحبَّه ويسعد ويرتد. التحرُّك الحقيقي كائنٌ بالمسيح، فهو ابن الله الآتي إلينا على الصليب، وعلى الصليب نتبعه إلى الآب.

هو يقول: «بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا» (يو ١٥: ٥). ليس هذا احتكارًا تعسُّفيًا لإرادتنا، ولا هو بسبب قصورنا في المعرفة، لأنه عرَّفنا بكل شيء؛ ولكن لأنه الوحيد كابن، فهو يحمل قوة التحرُّك نحو الله الآب.

والمسيح يحمل قوة حركتَيْن: حركة من الله الآب نحونا، وحركة منا نحو الآب. **الأولى** طبيعية، وهي جوهرية كائنة في سرِّ الحب نحو خليقته؛ **والثانية** مُكتسبة بالصليب، أي الألم الفدائي، الذي أهَّله أن يحمل الإنسان الميت ويصعد به!

والمسيح سَكَبَ فينا سرَّ هاتَيْن القوَّتَيْن: قوة الحب، وقوة الصليب (الألم). وبقبولنا هاتَيْن القوَّتَيْن يعمل المسيح فينا سرًّا لنتحرَّك به ومعه إلى أن نصل إلى الآب، ويتمُّ بهما وفيه السرُّ الأعظم؛ **سرُّ الاتِّحاد بالله**.